

الفصل التاسع

عاد علي وابنه من القاهرة بعد أسابيع وفي نفس كل منهما بقية من حزنٍ عميق لم تمحها الأيام، ولكن نسجت عليها حجابًا أخذ يزداد صفاقة وكثافة من يوم إلى يوم، حتى أنسي علي أو كاد ينسى نفيسة، لولا أنه كان يرى خالداً، ويذكر أنه يعيش عيشة الفتى الأعزب، فيرثي له ويفكر في مستقبل أمره تفكيراً قصيراً، لولا أن الشيطان كان يخيل إليه بين حين وآخر أن ثروة عبد الرحمن صائرة إليه يوماً ما، فمضاعفة ثروته، ومُصلحة من أمره ما يحتاج إلى الإصلاح؛ فقد كثر نساؤه، وأخذ ولده يكثر، وأخذت النفقة تزداد وتثقل أعباءها، وأخذت الحاجات تكثر وتتعدد، وتجارة علي رابحة من غير شك، ولكن ربحتها يذوب في هذه الأسرة الكبيرة كما يذوب الملح في الماء.

وإنَّ العام ليطم دورته، ويبحث علي عما بقي له من ربحه فلا يجد شيئاً. ولعله أن يجد رأس المال وقد تحيف منه قليلاً أو كثيراً، فيضيق بذلك يوماً أو يومين، ويغتمُّ له ليلة أو ليلتين، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عن ضيقه وغمِّه إلى حياته هذه المطردة المضطربة: تجارة أول النهار، ولغو آخره، وراحة بين ذلك، وسهر عند الشيخ إذا كان الليل، ثمَّ العودة إلى داره ليقضي بقية الليل عند هذه أو تلك من نساءه، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من امرأته: شكاة من هذه، ونعياً على تلك، وعيباً للثالثة وثناء على نفسها، ثمَّ إلحاحاً في التسوية بينها وبين ضرائرها؛ فقد أهدى إلى هذه ما لم يُهدِ إليها مثله، وزعمت تلك أنه ترك لها من النقد كذا وكذا درهماً على حين أنه يبيت عندها ولا يترك لها شيئاً، وإنها لتلتمس المليمات تشتري بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها، فيظل ابنها محروماً ينظر إلى أبناء الضرائر وهم فرحون بما في أيديهم من الحلوى وما في جيوبهم من ألوان النقل. وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصباح أشد ما يكون إليه شوقاً. فإذا سمع صوت المؤذن أسرع إلى وضوئه وصلاته، يظنُّ أن التقوى هي التي